الخليج

الرأي, مقالات

30 يوليو 2023 00:09 صباحا

الصراع على إفريقيا في عالم يتغير

الكاتب

عبدالله السناوي

عبدالله السناوي

في توقيتها وظروفها اكتسبت القمة الروسية الإفريقية الثانية، التي انعقدت في سان بطرسبورج، طابع المواجهة الدولية المفتوحة على القوة والنفوذ.

تحت وطأة الاستنزاف المتبادل في الحرب الأوكرانية، التي يكاد يستحيل حسمها عسكرياً بأي مدى منظور، تتأكد أمام طرفيها، حلف «الناتو» بقيادة الولايات المتحدة وروسيا على الجانب الآخر، ضرورات التمركز على خرائط القوة والنفوذ باتساع العالم، والقارة الإفريقية على رأسها.

التمركز قضية مصالح واستراتيجيات وهيبة نفوذ.

قبل أن تنعقد قمة سان بطرسبورج بدأت حرب معلنة لإفشالها، أو دفع أعداد كبيرة من القادة الأفارقة إلى مقاطعة أعمالها بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة.

شاركت أغلبية الدول الإفريقية بممثلين رفيعي المستوى، فيما تغيبت تحت الضغط عدة دول تعد على أصابع اليد الواحدة، لم يحصرها أحد ولا اهتم بغيابها أحد، باستثناء النيجر التي تعرضت لانقلاب أطاح رئيسها.

كانت تلك إشارة عكسية إلى رغبة عامة في القارة لعدم قطع الصلات الاقتصادية والاستراتيجية مع موسكو أيّاً ما كانت درجة الضغط عليها.

هكذا تجاوزت القمة سيناريوهات الإفشال المسبق.

رغم التمثيل الأقل وجد الرئيس الروسي فلاديمير بوتين أمامه منصة دولية مؤثرة ومسموعة، يخاطب من فوقها الشعوب الإفريقية المتضررة بقسوة من أزمة الحبوب الأوكرانية.

بشيء من الإسهاب حاول بوتين أن يشرح الموقف الروسي محملاً الغرب مسؤولية تعطيل اتفاق الحبوب.

«أغلب الحبوب المصدرة تذهب للدول الأوروبية الغنية، ولا تستفيد الدول الإفريقية الأكثر تضرراً بأكثر من 3%».

تجاوز الدفاع إلى الهجوم باستثارة غضب وحنق الأفارقة متعهداً بإمداد ست دول إفريقية فقيرة بما تحتاجه من حبوب دون مقابل.

«روسيا قادرة على تعويض الحبوب الأوكرانية وسد احتياجات القارة وفق القواعد التجارية».

أراد أن يقول إنه إذا ما رفعت العقوبات عن روسيا فلا توجد أدنى مشكلة غذاء في العالم.

كان ذلك داعياً إلى اعتراضات دولية عديدة لخصها أمين عام الأمم المتحدة أنطونيو غوتيريس «أن القضية أكبر من أن تلخصها بضع إعانات».

هذا صحيح إلى حد ما، غير أن الغرب يتحمل بدوره قسطاً كبيراً من مسؤولية إيقاف صفقة الحبوب، حيث لم يلتزم بأية تعهدات قطعت في إسطنبول برعاية الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، بأن تحظى الحبوب والأسمدة الروسية بمعاملة مماثلة للأسباب الإنسانية نفسها.

القمة الروسية الإفريقية الأولى التي عقدت بمنتجع سوتشي قبل أربع سنوات، بدت من ضمن توجّه دولي تبنته دول كبرى عديدة للرهان على إفريقيا الواعدة.

احتذت الولايات المتحدة وفرنسا والصين الفكرة نفسها بصور ومقاربات متشابهة، اتفاقات اقتصادية وعسكرية وبروتوكولات تعاون، في مجالات التعليم والصحة والثقافة والتقنيات الحديثة ووعود بتحسين البنى التحتية في دول القارة.

شيء من ذلك جرى في القمة الروسية الإفريقية الثانية، تعهدات ووعود بتوسيع نطاق التعاون الاقتصادي والثقافي والتعليمي إلى مستويات قياسية، لكن البيئة العامة الدولية اختلفت بفداحة على خلفية حرب الاستنزاف الأوكرانية، التي قد تقرر نتائجها مستقبل النظام الدولي.

أرادت موسكو هذه المرة أن تقول إنها ما زالت لاعباً رئيسياً في الساحة الدولية، وأن نظاماً دولياً جديداً يوشك أن يولد لن تنفرد به قوة دولية واحدة على ما كان جارياً في سنوات الحرب البادرة.

بقوة الحقائق، فإن موسكو المنهكة اقتصادياً بأثر حرب الاستنزاف الأوكرانية ليست جمعية خيرية، لكن الاعتبارات الاستراتيجية دعتها إلى المضي قدماً في توثيق علاقاتها بالقارة إلى أقصى حد تستطيعه.

كان مثيراً للانتباه أن يشير بوتين إلى المشروع النووي السلمي لتوليد الطاقة الكهربائية في الضبعة بمصر، كمثال عملي لنوع التقنيات الحديثة، التي تمتلكها بلاده.

مدفوعاً بطموحه لإعادة بناء النفوذ الروسي في القارة الواعدة، حاول بوتين بالقمة الأولى إعادة التمركز فيها بعد سنوات من إخلاء مواقعه إثر انهيار الاتحاد السوفييتي السابق.

بالقمة الثانية، أراد أن يقول للاعبين الدوليين: نحن هنا، لا يملك أحد حذفنا من على خرائط القوة والنفوذ.

بصياغة أخرى فإن القمة الأولى بدت استكشافية للفرص المتاحة.. والثانية، قتالية للحفاظ على فرص روسيا المستقبلية كلاعب دولي كبير.

أمام عالم جديد يكاد أن يولد، لابد لنا أن ندرك أهمية موقعنا في رسم خرائط المصالح والنفوذ في العالم.

لم يعد ممكناً لأحد في العالم أن ينكر على القارة الواعدة أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية.

القضية الرئيسية الآن: كيف تنظر القارة إلى نفسها؟

التاريخ حاضر في الذاكرة العامة، فالإفريقي يعتد بمعاركه للانعتاق من التمييز العنصري، ويعتز بأبطاله التاريخيين من أمثال عبدالناصر ونكروما ولومومبا ونيريري ومانديلا، لكنه لا يعيش في الماضي.

لديه كوابيسه وأحلامه وتساؤلات عن مستقبله.

قضية الديمقراطية تشغله، غير أن الانقلابات والحروب الأهلية والعرقية المشتعلة في جنبات القارة، تكاد تقطع الطريق على الآمال الواسعة المعلقة على مستقبل جديد.

القمم الدولية المتصارعة على القارة والتمركز فيها إشارة إلى المستقبل، لكنها ليست المستقبل نفسه.

الأفارقة وحدهم صناع مستقبلهم في عالم يتغير.

"حقوق النشر محفوظة "لصحيفة الخليج .2024 ©